محاربة عبد الناصر بعبد الناصر

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت أعوام الستينيات حتى 5 يونيو 1967م هي الأعوام التي بدأ الشعب المصري يتهامس فيما بينه عن مرض مصاب به عبد الناصر يسبب الجنون . . وبالذات جنون العظمة، وتزايد الهمس عندما توفي الدكتور أنور المفتي فجأة وكان هو الطبيب الخاص لعبد الناصر الذي قيل إنه مكتشف هذا المرض عند عبد الناصر مما دفع عبد الناصر إلى قتله بالسم.

ولكن المراقب لم يكن يحتاج إلى تقرير من طبيب، فلقد أعلن عبد الناصر عن جنونه بنفسه عندما أصدر عام 1965م قراراً باعتقال 18 ألف مواطن في يوم واحد وفي ساعة واحدة . . هي ساعة السحر . . إرهاباً للشعب.

وكانت اعتقالات 1965م قد شملت كل تيارات الحركة الإسلامية، وعلى رأسها "الإخوان المسلمون" ، وشملت معهم كل من تاخم ولامس أو جاء ذكره مصادفًا لأي فرد من الحركة الإسلامية ولو كان نصرانيًا! كانت الحملة قاسية ولا إنسانية، غاشمة وباغية، وأصيبت مصر بالذعر حتى إن البعض أوشك على حرق سجادة صلاته وإخفاء مصحفه حتى لا يتهم ويزج به معتقلاً مع الإخوان المسلمين.

وكانت هذه الفترة ـ كذلك ـ فترة استماتة الجماهير في مصر من أجل التمسك بالمكاسب الاشتراكية التي أتت بها قوانين 1961م . . كان الجهد الشعبي يرمي إلى تحويل هذه القوانين من مجرد شعارات "مزوقة" وتجارة سياسية تملأ قنوات الإذاعة والتليفزيون بالمن على الشعب بما جلبته له السلطة السياسية: كان الجهد أن تتحول هذه القوانين إلى واقع ثوري حقيقي، فقد أدرك قطاع الطليعة المثقفة الثورية الزيف

الذي يغلف كل الشعارات الثورية التي يطرحها عبد الناصر في خطبه وتبثها أجهزة إعلامه. لكن الطليعة الثورية كانت ـ بالرغم من إدراكها هذا الفارق الضخم بين المعلن والواقع ـ تدرك كذلك إنها مرغمة على أن تحارب عبد الناصر بعبد الناصر.

فلقد أدرك الكثيرون أن هناك رمزين من عبد الناصر:

1. **عبد الناصر**: المواثيق والقوانين الثورية الاشتراكية، والتي هي حبر على ورق.
2. **عبد الناصر**: جهاز الحكم والتنفيذ الذي يقمع كل سلوك ومبادرة ثورية، ويتصيد الثوريين حتى من بين صفوفه، الذين يريدون تنفيذ القوانين الاشتراكية. بينما يحمي ويدعم كل المخالفين والمتهربين من القوانين الاشتراكية.

وهكذا عرفت سنوات الستينيات خاصة ما بعد 1961م الهوة الفاضحة بين القول والفعل، وصار هذا موضوع التعبير الفني عند كثير من الشعراء والكتاب ومؤلفي المسرح الذين ظهروا ولمعوا في تلك السنوات الفوارة بغليان النقد، وإشارات التنبيه. لكن هذا الغليان من النقد لم يكن ليحظى من عبد الناصر "الحكم" إلا بالابتسام أحيانًا وبالجهامة في أغلب الأحيان، وكانت أحوال الابتسامة مبعثها أن "محمد حسنين هيكل" قد أفهمه أن طقس النقد إلى درجة معينة لا ضير منه بل على العكس فهو يعطي الساحة الفنية والسياسية جاذبية ثورية، ومسحة نضالية محببة مما يساعد على تنشيط "السياحة السياسية"، وزيادة الترويج العربي والمحلي لشخص عبد الناصر.

ومن هذا الإطار كون هيكل ـ بتدعيم كامل من عبد الناصر ـ في مؤسسة الأهرام ما أسماه الصحفيون في ذلك الوقت "طبقة المخصوص" من الكتاب والصحفيين، وكان أبرزهم "توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، ويوسف أدريس، ود. حسين فوزي، ولطفي الخولي.. إلخ" ليقودوا خط النقد "اللانقد" ويحموا تحت أجنحتهم

بعض التيارات النقدية الأكثر حدة منهم . ولكنها مع ذلك لا تمس أي عصب موجع خارج هذا المخصوص . . برزت أصوات نقدية معارضة غير ملجومة بقيد من خوف أو تحفظ فنشأ جيل كامل طليعي كتب الشعر والقصة والرواية والمسرحية وأشكال المقال السياسي المختلف ، ولم يسمح لهذا الجيل بالظهور أبداً من خلال قنوات الدولة الشرعية ، فاضطر هؤلاء الكتاب أن يستنسخوا نتاجهم ليقرأ ويسمع في دائرة محدودة تعبر عن شعب مصر وآلامه . . لكنها لا تصل إلى الشعب أبداً حيث وقفت المؤسسات الفنية الضخمة حائلاً بين الشعب وصوته .

هذا النقيض في عالم الثقافة والإعلام كان من اليسير على عبد الناصر "الحكم" أن يسيطر عليه أو يحتويه أو يسحقه دون أن تسيل نقطة دم جسدية واحدة ـ رغم أن بحاراً من الدماء والقتل المعنوي كان واقعًا ومستمراً .

المشكلة بدأت عندما أخذت العناصر الثورية ـ بين العمال والفلاحين ـ تمارس دورها في حماية ما أسموه "ظهر الثورة" وحراسة "مكاسب الشعب الاشتراكية" فقد لاحظت هذه العناصر الثورية ـ والتي هي 100٪ "يوليوية" أي تكون من الأحلام والطموحات التي تفجرت مع 23 يوليو 1952م ـ أن السيطرة ـ في كل قطاع عام أو مصنع أو جمعية تعاونية ـ كانت للمخالفين واللصوص والمرتشين وأهل الفساد كافة . . كانت السيطرة للأعداء الحقيقيين للاشتراكية المزعومة مما أدى إلى واقع مشلول الفاعلية للقطاع العام والمصانع والجمعيات التعاونية : ما بين مصنع منهوب وجمعية مسروقة ومستغلة وقوانين يتم التحايل لإبطالها ، وبرز من بين هذه الطليعة الثورية صلاح حسين وزوجته شاهندة مقلد في قريتهما كمشيش . . كان "صلاح حسين" كادراً ثورياً نقياً تربى في مدرسة الإخوان المسلمين التي تعهدت حماسه وجيشان غضبه للحق في سبيل الله ، وكان قد سافر وهو في العشرين ضمن كتائب الإخوان المسلمين للدفاع عن أرض فلسطين عام 1948م ، وعندما قامت

ثورة 23 يوليو 1952م اعتبر نفسه ضمن جنودها للتغيير والتصدي للإقطاع والفساد في قريته كمشيش، وكان دوره هو تشجيع الفلاحين على رفع رءوسهم عالية مستندين إلى ثورة يوليو 1952م في مواجهة طغيان وسطوة عائلة الفقي الإقطاعية التي مدت سيطرتها من خلال عملاء لها إلى الجمعية التعاونية للفلاحين، وإلى جهاز الأمن بالمنطقة.

وشهدت كمشيش عمليات الاعتقال والتربص بالفلاحين، وضربهم، وتعذيبهم لصالح عائلة الفقي التي لم تتوقف عن الوشاية بصلاح حسين وزملائه لدى أصدقائها في أجهزة الأمن، وبعض المسئولين في مجلس قيادة الثورة! وكان أن تم اعتقال صلاح حسين العديد من المرات بتهم مختلفة تتناقض مع بعضها البعض. فمن اتهامه بالانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين إلى الاتهام بتكوين خلية شيوعية في كمشيش! وكان صلاح حسين يحلل أسباب العسف الواقع عليه وعلى الفلاحين من سلطات الأمن بأن هناك بعض عناصر فاسدة في هذا الجهاز الموروث عن العهد البائد قبل الثورة، وأن القيادة الثورية في الحكم وعلى رأسها عبد الناصر لا يعرفون أمر هذا الفساد وهذا الظلم الواقع على أبناء الثورة المخلصين.

وبإيمان مطلق بهذه القيادة وبراءة نقية أخذ صلاح حسين على عاتقه أن ينبه القيادة الثورية الحاكمة إلى هذه المخالفات لمبادئ الثورة والتي من شأنها أن توقع بين الحاكم المخلص والمحكوم المخلص كذلك.

بهذا التصور البريء استمرت محاولات صلاح حسين وزوجته شاهندة وزملائهم لتنوير القيادة السياسية بما يحدث ضد الثورة في الخفاء، وكان اكتشافهم لعمليات مريبة تقوم بها الأسرة الإقطاعية "لتهريب الأرض" بالتحايل على حد الملكية الذي قرره القانون، وضم مساحات من الأرض ـ لا يسمح بها القانون ـ لملكياتهم

الخاصة، وكان لابد أن يستميت صلاح حسين وشاهندة لكي يستطيعا أن ينبها السلطة الغافلة ـ أو التي تدعى الغفلة ـ إلى هذه المخالفات الخطيرة التي تقوم بها عائلة الفقي بجسارة وإرهاب، وفي قمة هذه الاستماتة الثورية للحفاظ على قوانين السلطة الناصرية باعتبارها حق الفلاحين سقط صلاح حسين فجأة برصاصات غادرة شهيداً على أرض قرية كمشيش في 30/ 4/ 1966م ـ قبل أربعة شهور قبل تنفيذ حكم الإعدام في عدد من قيادات الإخوان المسلمين من بينهم الشهيد سيد قطب في 20/ 8/ 1966م.

وهاج الفلاحون، وقامت شاهندة ـ بعد 40 يومًا من وضعها لطفلتها بسمة ـ لتقود المظاهرات في كمشيش ضد الإقطاع ممثلاً في عائلة الفقي وضد عملاء الإقطاع مدركة هي والفلاحين أن القاتل لابد وأن يكون من عائلة الفقي صاحبة المصلحة المعادية لصالح الفلاحين، ورفع الفلاحون هتافًا يتساءل: "قلبوها حمرا يا جمال ولأمتى بيضا يا جمال!"، ونزلت عناصر سلطة عبد الناصر "لحكم" القرية مرتجفة من هياج الفلاحين الذين أقسموا على تمزيق عائلة الفقي وعملائها.

كانت السلطة خائفة من هياج "الفلاحين" المتجمع كما خافت من قبل في بدايات أيامها من هياج "العمال" المتجمع، ورغم أن هياج الفلاحين كان مستنداً إلى دعمه للثورة والسلطة الحاكمة كما كان هياج عمال كفر الدوار من قبل في 8/ 1952م إلا أن السلطة كانت تعرف نفسها وحقيقتها أكثر من معرفة الفلاحين والعمال بها. كانت تعرف أنها سلطة فوقية لا يمكن أن تسمح ـ بالذات ـ للفلاحين والعمال بمبادرات يمكنهم من خلالها المشاركة في تسيير البلاد، وفرض الحلول لمصالحهم. كانت تعرف أنها سلطة فوقية ارتدت الثورة رداء مستعاراً، ويمسك بتلابيبها فرد واحد لا يسمح لرأس مستقل، وحر وعزيز أن يرتفع أمامه حتى ولو كان مخلصًا محبًا له مرافعًا عن سلطته ممثلاً لشعاراته كما كان صلاح حسين.

ولقد طار من قبل رأس الشهيد العلامة عبد القادرة عودة عام 1955م لأنه استطاع أن يسكت الجماهير المتجمعة في عابدين في مارس 1954م بإشارة من يده بعد أن عجز عن ذلك الواقف إلى جواره[1]: فلقد عزم عبد الناصر منذ بداية انفراده بالحكم

(1) روايات عديدة أوردت جريمة قتل الشهيد عبد القادر عودة ظلمًا ـ فوق ظلم ـ بقرار من عبد الناصر شخصيًا، منها واحدة سمعتها شخصيًا من الأستاذ محمد عودة الكاتب السياسي الناصري وأخرى من الأستاذ فتحي رضوان ـ أطال الله عمره ومكنه من تسجيل شهادته بنفسه في هذه الواقعة للتاريخ ـ ثم أخيرًا شهادة الأستاذ أحمد حسين ـ رحمه الله ـ في مقاله الأخير قبل وفاته بأيام في جريدة الشعب 7/ 9/ 1982م ص6، والتي ـ لأهمية دلالتها في إطار هذا التحليل ـ أنقل عنها هذه السطور:

"نحن الآن في عام 1955م أفرج عني وتنازلت عن القضية، ولكني ظللت مجروحًا فلم يحدث في كل تاريخي النضالي أن أهنت كما أهنت واعتدي عليّ كما اعتدى عليّ في ظل الثورة...

أطلق الرصاص في ميدان المنشية على جمال عبد الناصر، وكان الضارب شخصًا يدعى عبد اللطيف من الإخوان المسلمين، وعلى الرغم من أن عبد الناصر قد نجا فقد ظن أنه أصيب في مقتل وراح يثرثر بكلام فارغ يكشف عما في عقله الباطن، وأخذ يخاطب الشعب بقوله: "غرست فيكم العزة والكرامة!".

واستغل هذا الحادث للبطش بالإخوان المسلمين وتألفت محكمة خاصة لمحاكمتهم وقضت على زعمائهم بعقوبات قاسية وعلى الرغم من أن واحدًا منهم وهو عبد القادر عودة كان مسجونًا قبل وقوع الحادث فلم ينج من عقوبة الإعدام. وفزعت من هول المحاكمة.. ومن فظاعة أحكامها وأدركت أننا أصبحنا نعيش في ظل عهد جديد: حيث لا قانون ولا حدود وإنما إرادة الحاكم ومطلق مشيئته فقررت أن أهاجر من مصر، وإذا كان الوقت هو موسم العمرة فقد قررت أن أسافر السعودية طلبًا للعمرة ومن السعودية أختار البلد الذي أتوجه إليه. وإمعانًا في التمويه والتعمية طلبت مقابلة عبد الناصر لاستئذانه في السفر وبالرغم من أنني كنت مقررًا أن لا أتحدث في غير التحيات والسلامات والمجاملات العادية، فقد كان هو الذي دفعني للكلام حيث لم أتمالك نفسي عن نقده. سألني ما رأيك في الإخوان المسلمين؟ قلت: إنك تعرف رأيي ـ أقصد الموقف الأخير ـ ووجدتني أندفع بلا وعي أندد بإعدام عبد القادر عودة ـ قلت لقد كان باستطاعتك أن توفر 50٪ من النقد الذي وجه إليك لو وفرت حياة إنسان واحد. وأسرع يقول: تقصد عبد القادر عودة؟ قلت: نعم، فإن عبد القادر عودة بريء من الحادث الذي وقع، كما أنه بريء من أعمال العنف. ومضيت أترافع في حماسة: وهناك ثلاثة أدلة يكفي كل واحد منها لتبرئة عبد القادر عودة، وقد ثبتت كلها أمام المحكمة:

الأول: إنه كان سجينًا قبل وقوع الحادث بعدة أسابيع.

الثاني: إنه اقترح بعض الأعضاء القيام بمظاهرة مسلحة فأنكر عبد القادر عودة هذا الاقتراح بشدة.

والثالث: إن البعض اقترح القيام بمظاهرة سلمية فرفض عبد القادر عودة القيام بأية مظاهرات. =

على ألا يسمح لكائن من كان أن يرتفع في مصر على أيدي الجماهير أو أن تفرز الجماهير من ذاتها باختيارها من تراه ممثلاً لها، وهذا الذي يدفعني إلى القول بأن اغتيال صلاح حسين لم يكن في واقعة إلا تنفيذاً لحكم بالإعدام صدر عليه من قبل السلطة التي أزعجها نشاطه وصدقه وجماهيريته الراسخة بين أبناء قريته، ومما يؤكد هذا القول ما ذكره أنور السادات كثيراً في خطبه ثم في كتابه "البحث عن الذات" من أن عبد الناصر امتعض حين مر على كمشيش أثناء زيارة وقرأ لافتة تقول: "ثورة كمشيش تحيي الثورة الأم ثورة 23 يوليو!" وقال عبد الناصر: "الله.. هو فيه ثورة تانية في مصر واحنا مش عارفين والا إيه"!؟

إزاء هياج الفلاحين في كمشيش ـ لمقتل زعيمهم صلاح حسين ـ تحركت خطة عبد الناصر المعتادة في تمييع المواقف الساخنة.. فلم يكن بوسع السلطة أن تفعل بالفلاحين عام 1966م ما فعلته بعمال كفر الدوار 8/ 1952م ولذلك كان عليها أن تستبدل الوجه الجهم في مواجهة العمال بالابتسامة الصفراء في مواجهة الفلاحين: وبدأت الخطة باحتضان قضية مقتل الشهيد صلاح حسين على أساس أنها قضية تستوجب تحقيقًا تتبناه الدولة لمعاقبة الإقطاع الذي بدأ يتحرك ـ (هكذا! ولم يجد أحد الفرصة ليتساءل وكيف تركتم إقطاعًا به قوة للتحرك ولقتل العناصر الثورية بعد أربعة عشر عامًا من حكم تسمونه "ثورة!") ـ واستفادة من منطق: "اقتل القتيل وامش في جنازته" ومبدأ "اقتل الجميع بحجر واحد" واحتياجًا لـ"زار" صاخب تتوه فيه جرائم القتل ـ الممهد لها والتالية ـ التي تقرر تنفيذها في زعماء المقاومة الإسلامية

= وأصغى عبد الناصر لمرافعتي ثم قال: "والله يا أحمد نحن لم ننظر للأمر من الناحية القانونية، بل نظرنا إليه من الناحية السياسية".

غادرت مصر إلى السعودية، وأنا لا أكاد أصدق أنني هربت من الجحيم الذي أصبح فيه الأبرياء يعدمون لأسباب سياسية... " . انتهى المقتطف.

وعلى رأسهم الشهيد سيد قطب في 20/ 8/ 1966م: وجدت السلطة ضالتها في قضية كمشيش التي تفجرت مع عيد العمال 1/ 5/ 1966م.

صرخ الفلاحون: "الإقطاع هو القاتل: الويل له". فالتقطت السلطة هذه الفرصة الذهبية لإخفاء جريمتها ومسئوليتها عن قتل الشهيد صلاح حسين: الجريمة التي نفذتها وحدها ـ ربما ـ أو نفذتها بالاتفاق مع عائلة الفقي ـ ربما كذلك ـ حيث التقت مصالح السلطة ومصالح الإقطاع في الخلاص من الشاب الشريف المتألق بحب وثقة الفلاحين الشهيد صلاح حسين[2].

وهكذا، ومع الإقرار بجرائم عائلة الفقي وتاريخها الطويل الأسود في العمالة للمستعمرين الإنجليز، وقتلهم وإذلالهم للفلاحين المعدمين إلا أن عائلة الفقي ما كان يمكنها أن تنقض على أحد إلا بإيعاز وتواطؤ مع سلطة عبد الناصر، ولرؤية ضوء الموافقة الأخضر يحمله إليها صديقها الحميم ومندوب عبد الناصر لديها "محمد أنور السادات".

وقررت سلطة عبد الناصر أن تصرخ ـ لبعض الوقت ـ مع الفلاحين: "الإقطاعي هو القاتل: الويل لعائلة الفقي"، فهي على كل حال لن تخسر شيئًا.. بل هي الكاسبة في كل الأحوال، ومكاسبها هي:

1. التخلص من صلاح حسين: كزعيم محتمل خطره بين الفلاحين.
2. إرهاب الإقطاع وعائلة الفقي وابتزازهم لعائد منافع شخصية، والمزايدة بهم في

(2) تجدر الإشارة هنا إلى أن صلاح حسين ظل محدد الإقامة طوال سنوات 52،53،54 بسبب معاركه ضد الأسرة الإقطاعية ثم اعتقل عام 1954م ضمن اعتقالات الإخوان المسلمين ولم يفرج عنه إلا عام 1956م، ثم اعتقل مع الإخوان مرة أخرى ضمن هجمة 1965م الشهيرة.. ولقد ظل صلاح حسين معزولاً سياسيًا حتى لحظة اغتياله مما يوثق استنتاجاتي بتواطؤ السلطة الناصرية مع الأسرة الإقطاعية في جريمة قتله.

الشعارات الطنانة المفيدة لواجهة الإعلام المزيف الثورية ـ (لم يتم إعدام أحد من عائلة الفقي وحكمت المحكمة ـ كما سنتبين ـ ببراءتهم مما خول لهم حقوق التعويضات الهائلة التي دفعتها لهم السلطة نفسها فيما بعد ـ في حكم السادات ـ مقابل الأضرار والتعذيب الذي لحق بهم : فكأن السلطة كانت في الواقع تؤجرهم "ملطشة" لبعض الوقت عازمة في ضميرها أن تدفع لهم أجر ذلك فيما بعد!) .

3. إقامة حفلة زار ضخمة يتطوح فيها الجميع : صارخين بلعن الإقطاع، فيتم إلهاب التعلق "بالشجيع" عبد الناصر الذي لا بأس أن يذهب فداء له أي شيء وأي أحد ولو كان عالمًا فذًا لا يعوض مثل الشهيد سيد قطب ـ روحي فداه .

ونجحت الخطة اللا أخلاقية لسلطة عبد الناصر . . أجلت الخطب والبيانات والحملة الإعلامية ضد الرجعية والإقطاع . . إلخ غضب الفلاحين الفوري وحركتهم العفوية وغضب شاهندة الثوري العاصف، وتم الإعلان عن محاكمة عسكرية لعائلة الفقي بعد القبض عليهم، وممارسة الهواية الناصرية عليهم ألا وهي هواية : "التعذيب الفاحش" الذي كان يتم ويمارس على كافة التيارات السياسية الملقاة خلف سجون عبد الناصر الشهيرة .

بعد الإعلان عن المحاكمة العسكرية توقف مهرجان حفلة الزار ضد الإقطاع، وفتر بعد أن استنفدت أغراضه الدعائية والسياحية السياسية، ثم تطور الموقف إلى نتيجة صعق لها الفلاحون بعد أن تأجلت المحاكمة العسكرية عامين من 1966 إلى عام 1968م قرر عبد الناصر تحويلها إلى قضية عادية تنظرها محاكم عادية .

ونظرت محكمة صادق المهدي بدار القضاء العالي المهزلة! لم تعد القضية محاكمة عائلة الفقي أو الإقطاع بل تحولت في صيف 1968م إلى محاكمة ظالمة جائرة للشهيد المقتول صلاح حسين، وبدأنا نشاهد قرارًا جديدًا بإعدام صلاح حسين . . لكنه كان

بشكل مختلف: تشويه صورته الوضيئة.. ما بين صورة فارض الإتاوات على الفلاحين.. البلطجي.. المنحل.. إلى صورة التافه المغرور فاقد القيمة المدعي إلى صورة المتطرف الديني، والشيوعي الملحد، الذي حول كمشيش إلى بؤرة للعمالة للاتحاد السوفيتي! ولم تكتف المحاولة الإجرامية بهذا التشويه الحاقد الموتور بل قررت أن تلوح بتهديد لزوجته شاهندة، أن "مجرور" أجهزة الأمن والدعاية جاهز بنشر ظلال وشبهات الوحل حول عرضها كامرأة!

ففي أوج ما بعد عام الهزيمة المرة 6/ 67 وذلك في 5/ 68: وقفت "شاهنده مقلد" أرملة الشهيد صلاح حسين مع الفلاحين في دار القضاء العالي غير مسموح لهم بعرض قضية مقتل شهيدهم بل تولت النيابة عرض القضية ـ بفتور ـ بصفتها ممثلة للدعوى التي أقامتها "الدولة" ضد عائلة الفقي. وفي المقابل وقف المتهمون ممثلين بهيئة دفاع من كبار عتاولة مهنة المحاماة الذين يمثلون بواقعهم الفكري والاجتماعي العقلية الاستكبارية بأبشع أحوالها حين تطمح لتكون من الإقطاع. وكان من المعروف أن كل محام قد تسلم من العائلة الإقطاعية ما لا يقل عن خمسة آلاف جنيه، ووقفت هيئة الدفاع ـ بعقليتها هذه السادرة في الرجعية والتخلف وارتزاقها الواضح من العائلة الإقطاعية ـ وقفت تسب وتلعن كل أسس الفكر الاشتراكي ـ (المفروض أنه كان شعار الدولة) ـ وتسخر مما يسمى "الاشتراكية العربية" ـ (وهجومها هذا بالطبع لم يكن لصالح الدعوة إلى الإسلام وإنما لصالح الجشع والطمع) ـ وتدافع عن حق الإقطاع في اقتطاع ما يشاء من أرض وثروة.

ـ (ومازلت أذكر المحامي الذي وقف يصرخ: "ملك الملوك إذا وهب.. لا تسألن عن السبب" في معرض إرساء مبدأ أحقية الإقطاعي المستكبر في سرقة حق المستضعفين من الفلاحين) ـ وظلت هيئة الدفاع تندد بالشهيد صلاح حسين ـ "القتيل الغائب الذي لا يملك الدفاع عن نفسه".

وكان هناك تنبيه علينا في الصحف ألا نتابع هذه المحاكمة كصحفيين. ومنعت الرقابة نشر أي شيء عن المحاكمة أو القضية، وكان هناك أمر بحذف كلمة "كمشيش" لو جاءت عرضًا في قصيدة أو قصة أو مسرحية أو مقال، وذلك حتى لا تتحول القرية وشهيدها إلى ملحمة وطنية تترسخ في مشاعر المواطنين! ولم يكن في المحكمة شهود عيان من الصحفيين إلا ثلاثة:

1. **لطفي حسونه**: مندوب أخبار اليوم والموالي للفقي.
2. **محمد عودة**: الكاتب السياسي الناصري والمفروض أنه يؤيد الفلاحين ومتعاطف مع موقف شاهندة، إلا أنه كان موفدًا من قبل قنوات السلطة الناصرية لينفذ تعليماتها في مص غضب الفلاحين وشاهندة والسيطرة عليهم بتوجيه النصائح والاقتراحات الكفيلة بإحباط انفعالاتهم حتى لا يفلت زمامهم في قاعة المحكمة أو خارجها.
3. **وكنت أنا الصحفية الثالثة**: حاضرة بقراري الذاتي بصفتي ناقدة مسرح!، لأكون شاهدة للتاريخ لعلي أتمكن في يوم من الأيام أن أقول لأبناء أمتي الحقيقة التي رأيتها ـ كنت أجلس مذهولة ومندهشة لكل ما يدور ولا أكاد أصدق أن هذا يحدث في ظل حكم أدعي تحمله مسئولية القصاص للشهيد المقتول، ويرفع الاشتراكية وحق الفلاحين شعاراً من شعارات سياساته الرئيسية. . وكنت أقول في نفسي: لو أن هذا حدث في ظل حكم آخر لقال عباد وعبيد عبد الناصر: "لو كان عبد الناصر موجودًا أو على قيد الحياة لما حدث هذا!".

وها هو يحدث وعبد الناصر على رأس الحكم وعلى قيد الحياة متباهيًا يظهر في التليفزيون يهدد الشعب بعد مظاهرات الطلبة للاحتجاج على هزيمة 67 في مطلع عام 1968م: "أنا عندما أردت ـ اعتقلت 18 ألف مواطن في يوم واحد"! ـــ مشيراً إلى مذبحة الاعتقالات في الصيف الأسود 1965م.

وقتها نبهت شاهندة: إن ما يحدث ليس صدفة، وليس معبراً عن هيئة دفاع مغرضة ورجعية فقط.. ولكن الأمر أخطر.. وقلت لها إنني أكاد أصل إلى حد اليقين إن سلطة عبد الناصر طرف له مصلحة في اغتيال صلاح حسين، وإلا لما سمح للأمور أن تصل إلى هذا المدى بحيث صار القتيل هو الجاني وصار القتلة من المجني عليهم.

وصدر ـ ما توقعته ـ من قرار للمحكمة ببراءة الإقطاعي العتيد وتم التنويه بأن القضية قضية ثأر عادية، وليس لها علاقة بالسياسة، ولا تمثل هجمة للإقطاع على الثورة والقوانين الاشتراكية!

وصعقت شاهندة وصعق الفلاحون وقرروا الخروج بمسيرة احتجاج. وهنا تدخل الأستاذ محمد عودة ليؤدي دوره الموكول إليه بتبني غضب الفلاحين وثورة شاهندة واحتوائهما تمهيداً لتبديدهما أدراج الرياح، وفعلاً نصح شاهندة بكتابة نص احتجاج على هذه المحاكمة وتبرئة الإقطاع يوقع عليه المثقفون تضامناً معها، وترفع لعبد الناصر.. ورغم أن شاهندة كانت توافقني قلبيًا على رفض الانصياع لنصائح الأستاذ محمد عودة، ودائرة المثقفين ـ الثوريين مع وقف التنفيذ ـ من نوعيته.. إلا أن شاهندة كانت تعرف أن قدراتها محدودة هي وفلاحيها.. ولم تكن بقدرة التصدي المفرد لسلطة عبد الناصر وأجهزة أمنه التي تشتهي ذبحها ـ (وعلى قمتها وزير الداخلية شعراوي جمعة) وبد لي كأنه كان محتومًا على شاهندة[3] أن تواصل الحرب ضد عبد الناصر من خلال عبد الناصر في غياب حركة إسلامية تشد الجميع إلى نورها.

كان الموقف واضحًا ـ لدى كل الصادقين من المثقفين الوطنيين الأحرار ـ بأنهم يقفون في موقف حرج بين:

(3) تجدر الإشارة هنا إلى أن السيدة شاهندة مقلد لا تزال إلى الآن تمثل وجهًا من وجوه التيار الناصري، وهي واحدة من أهم الكوادر البارزة في حزب التجمع اليساري.

1. تيار استكباري رجعي يسفر عن مفهومات رجعية متخلفة ويضمر الكراهية والمعارضة لعبد الناصر على أساس أنه يحقق الاشتراكية التي هي ضد مصالحهم . . وهم يكرهون الاشتراكية ليس حبًا في الإسلام، ولكن لأنها تفرض الحراسات على اللصوص من المستكبرين لصالح الفقراء من المستضعفين ـ وهذا هو التيار الذي استمر وساد السلطة المصرية تحت حكم محمد أنور السادات، حيث كان السادات أحد ممثلي هذا التيار . . بل ركيزته الأساسية فترة حكم عبد الناصر . . وهو مع صفته هذه كان محل ثقة ورضاء كامل من عبد الناصر الذي صفى كل أصدقاءه وزملاءه من مجلس قيادة الثورة ـ على مدار سنوات حكمه ـ وكان السادات من القلائل الذين ظلوا على النهاية متمتعين بثقة عبد الناصر سالمين من غدره .

2. تيار ثوري انتهازي يتكلم بلغة الثوارب، ويستخدم اصطلاحاتهم، ويصفق للاشتراكية ـ حيث يتفق مع الرجعية في ترويج أكذوبة أن عبد الناصر حقق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية للشعب المصري المغدور به . والفارق أن الرجعية كانت حزينة لذلك، وهم كانوا سعداء والواقع أن كليهما كان متوهمًا وكاذبًا في سبب حزنه وسعادته لأن الواقع الذي كان يعيشه الجميع أثبت أن اشتراكية عبد الناصر مزعومة أو أنها كانت عاطلة التنفيذ والجدوى إلى حد انتفائها وغيابها كلية ـ وكان هذا التيار بانتهازيته يجمع مكاسب مادية هائلة يسوغها لنفسه بمقولة : "الاشتراكية لا تعني الفقر . . الاشتراكية من أجل حياة أفضل" ! وكانت وظيفته الأساسية أن يزور حقيقة عبد الناصر، ويجعل منه وثنًا معبودًا له خوار، ويفلسف كل أخطائه ويبررها، ويدافع عنها أمام الرأي العام العربي والعالمي، ويقوم بدور تشويه وسحق مجموعة المثقفين الشرفاء من الحركة الإسلامية والعلمانية على السواء، ويتهمهم بالتطرف والطفولة الثورية والإرهاب

والشغب! ـ ونجد امتداد منهج هؤلاء وبعض عناصرهم يتمثل في النوعيات التي تقود أحزاب وصف ومؤتمرات المعارضة العلمانية حاليًا في عصر ما بعد السادات!.

كان هذا التيار يهندسه ويقوده الصحفي الأوحد "محمد حسنين هيكل" وتحت إبطه مساعده "لطفي الخولي" ـ قبل أن يغدر به ـ بالإضافة إلى ثقلين ثقافيين رئيسيين هما: توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ـ هاتان الشخصيتان الزئبقيتان اللتان أثبتتا قدرة شيطانية رهيبة في القفز واللعب على حبال كل التيارات بحيث أمكن لهما الامتداد والاستمرار في مكانتهما الراسخة العالية لدى كل سلطة مهما تغيرت الأقنعة واللغة واللهجة والصوت. وكان اسم كل من هؤلاء يحتكر تحت إمرته وحمايته طابوراً من أسماء عديدة ـ معظمها ناصرية وماركسية وتوليفة الماركسية الناصرية والناصرية الماركسية ـ وكان كثير من تلك الأسماء على علاقة عمل وثيقة مع وزير الداخلية آنذاك. وهذه الأسماء انقسمت في عهد السادات إلى قسمين:

1. **جزء**: رضى السادات أن يضمه إلى مؤيديه مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي... إلخ، مع ركائزه الثقافية الأساسية برئاسة يوسف السباعي.
2. **الجزء الآخر**: رفض السادات أن يضمه إلى مجموعه أو طقم خدامه مثل لطفي الخولي وجماعته رغم الكتاب الذي ألفه لطفي الخولي: "مدرسة السادات السياسية"، وظل الخولي وجماعته يتزلفون للسادات إلى آخر لحظة ويسمون حكومته: "حكومة وطنية" لابد من دعمها وكانوا يهاجمون حركة الطلبة المعارضة التي تصدت لزيف شعارات السادات الديمقراطية منذ البداية.. ولم تنقلب هذه الجماعة على السادات إلا حين تأكد إصراره على رفضهم حين أغلق مجلتهم "الطليعة" و"الكاتب" وعوق مجالات رزقهم ونشرهم.. هنا بدءوا يعزفون ألحان المعارضة العالية جداً حتى إنها صارت أعلى الأصوات جميعًا!

كان شعراوي جمعة وزير الداخلية من نوع عجيب: فعلاقاته بالمثقفين والصحفيين والكتاب كانت أقوى وأكبر من علاقاته بعساكره ومخبريه وضباطه. . ليس ذلك بسبب أنه شرطي مثقف ولكن لأنه شرطي قمع ذكي عرف ـ بعد قمع المقاومة الإسلامية ـ من أين يمكن أن تهب الريح الخطرة، وكان يرعى بنفسه بعض الشعراء والكتاب الشباب ـ منهم عبد الرحمن الأبنودي الذي أفاده فيما بعد في محاربة الشاعر أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام، وجعل شعراوي جمعة من نفسه قطبًا أدبيًا فتولى رئاسة مؤتمر الأدباء الشباب الذي عقد بالزقازيق عام 1969م وكانت ظاهرة غريبة عجيبة تساءل فيها الجميع: لماذا يرأس وزير الداخلية مؤتمراً لأدب الشباب؟ وما مهمة وزير الثقافة إذن؟

والغريب أن يوسف السباعي كان يجلس إلى جواره في هذا المؤتمر ودوداً مبتسمًا متشرفـًا برئاسة وزير الداخلية رغم أنه كان ـ فيما بعد في زمن السادات بعد عامين فقط ـ ممن مزقوا وجناتهم لطمًا وحزنًا. سنوات القهر التي مارسها شعراوي جمعة ومراكز القوى.

بين أشواك هذين التيارين الرهيبين وقفت العناصر الثورية الصادقة والشريفة موقفًا صعبًا. كان عليها أن تسلك طريقها وتؤدي مهمتها في نقد وفضح زيف ودجل سياسة عبد الناصر السرابية من دون أن تقع فيما يشمت الرجعية الاستكبارية ويشجعها، ومن دون أن تعطيها ما يمكن أن تستغله لضرب الطموح الثوري للفقراء المستضعفين من أبناء الشعب المصري، والطموح الثوري لتحرير مستضعفي المنطقة من الاستعمار والصهيونية من الوجود الأمريكي الإسرائيلي للسيطرة والهيمنة على مقدرات هؤلاء المستضعفين من شعوب المنطقة بالقوة والاغتصاب والمؤامرات الغادرة. كان عليها أن تنجح في ذلك، ومن دون أن تقع كذلك في تحالف مع نغمة الطبل والزمر والخطابة الجوفاء التي يعزفها الانتهازيون في صلاتهم الوثنية لعبد الناصر، وكانت المشكلة أن

هذه العناصر الثورية الشريفة كانت ـ ولا تزال ـ مشتتة لا يعرف بعضها البعض إلا في النادر، وكانت تدرك عزلتها ووحشيتها أمام التيار القوي الغالب للمثقفين الانتهازيين ـ خاصة التيار الذي يحتضنه ويشرف عليه محمد حسنين هيكل ـ ظل هذا الموقف بواجه المعارضة الصادقة للسادات بعد موت عبد الناصر، إذ وجدت المعارضة الصادقة للسادات نفسها بين أظافر السادات الشرسة التي نهشت عبد الناصر لأهداف خاصة وبين تيار الوثنيين. . وثن عبد الناصر ـ حتى بعد هلاكه ـ لابتزاز السادات مستمراً في محاولة إرهاق مصر بزجها في تلك الحلقة المفرغة: "السادات ـ عبد الناصر أو عبد الناصر ـ السادات" .

وكانت العناصر الثورية الصادقة تستمد موقفها ـ أغلب الأحوال ـ من مبادئها الأخلاقية الذاتية، وكرامتها الإنسانية. وكان بعضها له تماس مع الماركسية، وبعضها له تماس فع مواثيق ثورة يوليو، ويظن أنه بالإمكان إنقاذ عبد الناصر من انحرافاته لو أتاح الفرصة والأمان لكي يستمع إلى الملاحظات المحبة والمخلصة، وكان بعضها عناصر وطنية إسلامية ـ خارج الإخوان المسلمين ـ تعارض الماركسية باعتبارها فكراً يساريًا يعوق مسار الثورة الأصيلة الطامحة إلى التحرير بمنطلقات العروبة والإسلام، وكانت ترى عبد الناصر عائقًا ضخمًا في المسار الصحي للثورة إذ إنه يزحم الساحة ولا يزيدها إلا خبالاً.

قبل هزيمة يونيو/ حزيران 1967م كانت الساحة المصرية تنضح بكل العوامل التي من شأنها أن تقود إلى هزيمة!

ولم يكن هذا الحدس أو هذا الفهم خافيًا على أحد من المبصرين حتى إحد الشعراء الشباب ـ محمد إبراهيم أبو سنة ـ نشر في مجلة تصدر ببيروت عام 65/ 66 قصيدة بعنوان "غزاة مدينتنا" يحكي فيها عن مدينته التي دمرت ونهبت وينهيها بقوله: "كنا نحن الأعداء: كنا نحن غزاة مدينتنا!" .

كان عبد الناصر يعلن في المؤتمر الصحفي العالمي عن صواريخ القاهر والظافر وكيف أنها بقوة تصل إلى مدى يلامس "جنوب لبنان" ـ وكان يضحك قاصداً الغمز إلى ما يعنيه بجنوب لبنان هو أرض فلسطين المحتلة بالكيان الصهيوني ـ وكانت شاشات التليفزيون تعكس ثقته بنفسه وتعكس العيون القريرة من رجالاته في الأمن وفي الفكر والفن والثقافة المعجبة به، المدلهة في حبه.

وكان الشعب رغم كل أزماته وكل تضحياته وكل جوعه وقهره وآلام أمراضه فرحًا مؤمنًا بأن عبد الناصر ـ كما أفهموه بالطبل والزمر في الصحف والإذاعات ـ لا شك قادر على هزيمة الكيان الإسرائيلي ودخول تل أبيب وكان يهتف.

"عبد الناصر يا حبيب ... بكره ندخل تل أبيب"

وكان هذا الشعب المخلص الفقير على استعداد أن يتطوع حتى بجلده ـ بعد أن يفقد جلبابه الوحيد ـ في سبيل الحرب المصيرية: ولم يكن على استعداد مطلقًا أن يقول له أحد إن آخر الصبر وشد الأحزمة على البطون من أجل المعركة يمكن أن يكون في النهاية سرابًا ومذبحة في صحراء سيناء!.

وللأسف حدث آخر ما كان يريده الشعب المصري وحدث ما توقعته زرقاء اليمامة الطليعة الواعية التي رأت وتكلمت وحذرت ففقئوا عينيها.

مع إعلان الهزيمة النكراء باسم "النكسة" أعلن عبد الناصر تنحيه 9/ 6/ 1967[4]. وتصور الشعب الطيب أن "قوى خارجية" أو "قوى داخلية" قد أرغمته على هذا القرار فكان أن هبت الجماهير برد فعل قوي أخذ شكل الخروج إلى الطرقات بلا ترتيب مسبق ترفض ما يمكن أن يكون إذلالاً لسيادتها. والتفوا يساندون

(4) تجدر الإشارة هنا إلى أن عبد الناصر عين خليفة له شخصًا كريهًا هو زكريا محيي الدين، وكأنه كان يتنحى من ناحية ويدعو الناس إلى التمسك به من ناحية أخرى.

عبد الناصر "الرمز" ويستنقذون فيه كبرياءهم القومي وعنادهم الصلب تمامًا كما ساندوه من قبل في أزمة 1956م. وأعلنوا في هتافاتهم "بالروح بالدم حنكمل المشوار" قاصدين مشوار الجهاد ضد الكيان الصهيوني حتى التحرير والنصر. وكان موقف الشعب العظيم ـ رغم دماء أولاده التي لم تجف بعد على رمال سيناء ـ كان أكبر وأعمق من أن يستوعبه عبد الناصر بمنهجه الذاتي. وككل شيء عظيم قدمه الشعب المصري واستغله عبد الناصر لنفسه نزلت مظاهرات 10/ 6/ 1967م من الجماعات الموجهة من السلطة محرفة للشعار التلقائي المجيد الذي أعلنته روح الشعب الفدائية وتم تشويهه إلى: "بالروح والدم نفديك يا جمال".

وشتان بين منهج يقول بالروح والدم فداء للمعركة، ومنهج "وثني" يكرس الروح والدم من أجل "فرد"، ولكنها كانت العقلية الناصرية المريضة بعبادة الفرد "والفردية" التي تبدت بجلاء في شخصية عبد الناصر "الرجل" وفي جماعته المسماة بـ"الناصريين" في زمانه وحتى الآن: عقلية تكريس "الكل" من أجل "الفرد" أو "الجزء" بدلاً من تكريس "الفرد" و"الجزء" من أجل "الكل"، وهذا ما يفسر لنا لماذا سمى أتباع سياسة عبد الناصر أنفسهم بـ"الناصريين" ـ مناصرة للرجل ـ ولم يسموا أنفسهم مثلاً بـ"اليوليويين" نسبة إلى ثورة "23 يوليو 1952". وهذا أيضًا ما يفسر لنا فرحتهم كلما شاهدوا صورة لزعيمهم أو سمعوا له صوتًا، ويثيرون القضايا من أجل تسمية "بحيرة السد العالي" بهذا الاسم الكلي الراقي مطالبين بعودة الاسم الذاتي السارق لجهد الشعب المصري: "بحيرة ناصر" العقلية الناصرية التافهة السطحية التي ما إن تسيطر على إذاعة أو بوق إعلامي حتى تسارع إلى إغراقه بركام الأغنيات المخجلة عن "البطل اللي جابه القدر" و"عرفوني وقالوا لي انت من بلد ناصر" و"الفارس المارد العربي.. جمال"... إلخ.

وتشهد الحقيقة الفكرية لهذه الأغنيات كلها على تصور رجعي بدائي. حيث إن البطل لم يأت به الشعب ولم يبلوره من خلال تضحياته لا. بل "جاء به القدر"..
وبدلاً من تكون مصر هي "الكل" الذي ننتسب جميعًا إليها ومعنا عبد الناصر. صار العكس وصرنا جميعًا ومعنا مصر والأمة العربية. ننتسب إلى "فرد" "مارد" "فارس" "واحد" اسمه جمال عبد الناصر! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

obeikandl.com